بين نفوذي «حماس» و«فتح» ... وبيارات آل الحسيني وآل العلمي ... الحروب خلطت المعاني في غزة ... والأسماء أعطيت لشوارعها على عجل

غزة - حازم الأمين -قطاع غزة ليس منطقة منكوبة وحسب، انما هو أيضاً حياة مستمرة على رغم الحرب، وهو انقسامات وتفاوتات، وعائلات واقتصاد وأسواق. وكل هذه الصور تنعقد عند الحقائق الغزاوية الراهنة التي تثقل على السكان فيه. وزيارة غزة لن تكتمل بتقديم وجه المأساة فيها، على رغم ان لهذه الأخيرة حصة من معظم أوجه حياة السكان. ولكن غزة تبعث في زائرها شعوراً بأنه حيال مدينة سهلة ومنبسطة، وأليفة من دون شك. وما تلك السمعة التي لحقتها جراء تعاقب المآسي على سكانها إلا عنصراً في مشهد، وليست مكونات المشهد كله.

هنا تحقيق عن بعض ما يجري على هامش الحدث في غزة، ولكنه أيضاً متنه:

في السوق الرئيسي لمدينة غزة تجمع عدد من أصحاب المحال التجارية التي يجمعها مبنى تجاري واحد، ويجمعها أيضاً ان أصحابها جميعهم ممن لم يبلغوا الأربعين من أعمارهم. معظمهم غزاويـون، وهـذا يعني في غزة انهم ليسوا لاجئين، كما انهم ليسوا من مدن القطاع الأخرى.

«نحن غزاويون» ...هذا تفصيل بالنسبة لزائر عابر، لكن هنا في غزة له دلالات أخرى، فهو إشهار لتفاوت يستبطن احتجاجاً على ما آلت إليه أوضاعهم بفعل عوامل كثيرة، على رأسها الحصار طبعاً، ولكن من بينها أيضاً تحول في الاقتصاد الغزاوي همش موقع هؤلاء التجار ونقل نخباً جديدة الى متن الحركة الاقتصادية، وترافق ذلك مع تهميش مواز لنخب سياسية واقتصادية كانت على رأس الهرم الغزاوي، من دون ان يُحل انقلاب «حماس» نخباً جديدة مكانها، أو هذا ما يبدو في ظاهر المشهد الفلسطيني في القطاع. إذ ان الحركة الإسلامية في قبضها على الحياة العامة لم تسع الى إرساء قيم استهلاك وأنماط عيش تمت الى عالم هؤلاء التجار بصلة، وما حاولت تكريسه من قيم لا يمكن تصريفه في الأسواق، انما في المساجد ومواقع الدعوة والقتال.

ما قاله تجار ذلك المجمع في وسط غزة يؤشر الى مأزقهم في علاقتهم بالسلطة الجديدة. معظمهم ليس فتحاوياً، فهذه ليست من أهواء أهل المدن وتجارها، لكن دولة «فتح» قبل انقلاب «حماس» عليها تمكنت على ما يبدو من ربط هؤلاء بمصالحها، وهو من الإنجازات القليلة لتلك الدولة. أما دولة «حماس» فلعل الملمح الاقتصادي الوحيد لأدائها هو «انفاق رفح»، وهذه الأنفاق تمثل لتجار غزة انتكاسة، فهي نقلت وظائف الاستيراد والتجارة بالجملة الى ما يسميهم التجار هنا في المدينة بـ «المهربين» الذين لا مفر من التعامل معهم، على رغم ما أحدثوه من فوضى في الأسواق بسبب عدم احترامهم قواعد العمل في الأسواق وبين التجار. فيقول سامي، وهو تاجر شاب يدير محل والده لبيع الملبوسات: «ان البضائع التي يطلبها عبر النفق في رفح لا تصل كلها، إذ ان صاحب النفق يرتأي ان يأخذ منها كميات يتولى هو بنفسه بيعها الى تجار بعد ان يدرك اننا طلبناها لمعرفتنا بحاجة السوق إليها، وهذا ما يمثل سرقة لمجهودنا الذي بذلناه في تحديد الحاجات». هذه عينة صغيرة عن تبدل الوظائف الذي أحدثه اقتصاد الأنفاق في قطاع غزة. لكن كلام التجار لا يقتصر على هذا الخلل، انما يشمل نوعية البضائع وقيمتها، وتراجع القوة الشرائية للمستهلك. فالأنفاق بوصفها عقدة التجارة والتبادل في القطاع لم تنتج بعد فئات يمكن للاقتصاد الغزاوي ان يعول على أنماط عيشها في سعيه لأن يكمل دورته. والحصار الذي قدم للسكان النفق بديلاً من طرق الترانزيت، ومن قيم التبادل الطبيعية والقانونية، التي راكمها التجار على مدى عقود من العمل والتوارث والعلاقات، أعاد خلط المواقع والمراتب والأوضاع على نحو انتقلت فيه دفة الاقتصاد الى نخبة كانت على طرف الدورة الاقتصادية، فصار تجار غزة المدينة بائعين بالمفرق، ومن يتمكن منهم من الاستيراد، يخضع في استيراده عبر الأنفاق لمزاجية جدد على الأسواق.

لكن هذه ليست وحدها حال التجار الذين لم يتجاوزوا الأربعين من أعمارهم، فضائقة هؤلاء في مدينة غزة تتعدى فوضى الأسواق الى أنماط العيش والسلوك التي ضبطتها «حماس» على نحو قيمي صارم يضاعف مأزق هؤلاء. فكلامهم مليء بالإشارات الى ضوابط لا تنسجم مع ما يرغبون في عيشه، وهذه ليست بالضرورة رغبة بالانفلات من قيم الحياة العادية في مدينة محافظة اصلاً. فمصطفى مثلاً يقول مخالفاً رأي زملائه في رغبتهم بالخروج من غزة: «أنا باقٍ هنا لأن غزة ارض رباط ولن اتركها، لكنني اطمح الى ان اصلي في القدس، وهذا لن تؤمنه لي «حماس»، في حين سبق ان صليت فيها أيام أبو عمار».

من الواضح ان لفوضى الحقبة الفتحاوية في القطاع صوراً أخرى في مدينة غزة، ففشل السلطة الوطنية الفلسطينية في إدارة حياة الناس لم يكن قدراً وحيداً، ففي موازاته تمكنت المدينة من الحفاظ على قدر من استقرار قواعد عيشها لم تؤمنه قدرة «حماس» على الإمساك في الوضع الأمني، الذي لا يشك أحد هنا بتفوق «حماس» على «فتح» في تأمينه، وهو أمر يدفع معظم السكان الى الاعتقاد بتكامل وظيفتي الحركتين الفلسطينيتين.

يمكن للمتجول في غزة ان يحدد مواضع المجتمع الفتحاوي الذي قدم الى المدينة بعد اتفاق أوسلو في العام ١٩٩٤. انها الأحياء الجديدة في منطقة تل الهوا وفي حيي الرمال الشمالي والرمال الجنوبي حيث تنتشر تلك المباني التي يسميها الفلسطينيون «أبراجاً» فتقترب من بحر غزة ناشرة حولها منازل بطبقات قليلة بنتها منظمة التحرير الفلسطينية لمسؤولين فيها الى جانب منازل أخرى لوجهاء غزاويين ارتبطت أسماؤهم بالقضية الفلسطينية كمنزل حيدر عبد الشافي غير البعيد من منزل أم جهاد الوزير، وغير البعيدين بدورهما عن منزل الرئيس الفلسطيني محمود عباس الذي يقف على مدخله عناصر من شرطة حماس.

وإذا كان ممكناً لزائر عابر ملاحظة مناطق المجتمع الفتحاوي، ورصد بعض توجهات فئات غزاوية لجهة موقعها مما جرى ويجري في المدينة، يبدو صعباً الى حد ما استعمال نفس أدوات القياس لرصد مناطق النفوذ الحمساوي، إذ أن «حماس» سلطة الآن وهي أشبه بجهاز من الصعب تحديد موقعه من المشهد الغزاوي إلا بصفته الوظيفية. هناك عناصر شرطة من حماس، وهناك طلاب الجامعة الإسلامية، وهم فيها جيل وفئة عمرية وليسوا فئة اجتماعية أو مناطقية، وهناك أيضاً موظفو أجهزة الدولة الملتحي معظمهم، وأبعد من هؤلاء يمكنك بسهولة ان تلتقي بمن انتخبوا «حماس» وهم ليسوا بالضرورة مستمرين بقناعاتهم. وعندما تسأل عن مناطق في المدينة تتمتع فيها «حماس» بتأييد أكثر من غيرها من المناطق فيأتي الجواب، انه حي الشيخ رضوان في شمال المدينة المحاذي لمخيم الشاطئ، من دون أن يعني ذلك بالضرورة ان اللاجئين هم من يشكلون قوة نفوذ الحركة من دون غيرها، فهؤلاء الأخيرين يشكلون قوة نفوذ مختلف الفصائل وليس «حماس» وحدها، إذ أن نسبتهم من عدد سكان المدينة تبلغ نحو ٧٠ في المئة.

وإذا كان ثمة تشابه نوعي في نفوذي «فتح» و«حماس» في أوساط اللاجئين في غزة، لكن يبدو أن هناك تفاوتاً في علاقتهما بعائلات المدينة، إذ ان «فتح»، أو ربما منظمة التحرير الفلسطينية تمكنت خلال عقود من العمل في القطاع أثناء الاحتلال وخلال انتقال السلطة الفلسطينية إليها من إنشاء علاقة مع العائلات الغزاوية لم تتمكن «حماس» من مجاراتها فيها. ثم أن لغزة موقعها الخاص في منظمة التحرير، وربما فاق موقع أي مدينة فلسطينية أخرى، الى حد دفع أهل مدينة الخليل ذات يوم الى تسمية السلطة الوطنية الفلسطينية بـ «سلطة غزة». فاستعراض سريع لأسماء العائلات الغزاوية يؤشر وحده الى مدى ارتباط هذه الأسماء بمنظمة التحرير.

الحسيني والشوا وعبد الشافي والعلمي وبسيسو والقدوة والريس والبكري والغصين وأبو ستة والرمضان، بالإضافة الى آل الفرا والأغا والبطة في مدينة خان يونس جنوب غزة، هذه أسماء عائلات ربطتها بمنظمة التحرير الفلسطينية علاقات وطيدة، وإن كانت اقل ارتباطاً بحركة «فتح» مباشرة. والسائد هنا في غزة ان هذه العائلات ليست جزءاً من الانقسام الفلسطيني الراهن بين «فتح» و «حماس»، لكنها من دون شك أقرب الى منظمة التحرير الفلسطينية منها الى الحركة الإسلامية الفلسطينية.

هذا التقسيم يلحظ مستوى ثالث في تراتبية المشهد الغزاوي المنقسم، فإذا ما غامرنا بتوزيع المشهد بين مناطق «الثقافة» الفتحاوية و «الثقافة» الحمساوية، على ما في هذا التوزيع من شطط وتعميم، يمكن القول ان المستوى الثالث يخترق المشهد أفقياً فيوزع تلك العائلات بين الشوارع التقليدية للمدينة وبين الشوارع الجديدة والتي كانت الى الأمس القريب من دون أسماء، فسميت على نحو سريع فور تولي السلطة الفلسطينية زمام المدينة بأسماء تسعى «حماس» اليوم لاستبدالها. فمنطقة تل الهوا لم يكن هذا اسمها الشائع، لا بل ان فتحي يقول: «كانت منطقة بلا اسم لأنها لم تكن مأهولة ولا مقصودة من قبل السكان قبل مجيء السلطة في العام ١٩٩٤». وتوحي تسميتها بأن من أطلقها كان على عجلة من أمره بحيث اطلق عليها أول اسم راود خياله.

ويبدو أن «حماس» تسعى اليوم الى تعميم اسم آخر لها عبر تغييرها الكلمة الثانية من اسمها المركب لتصبح «تل الإسلام» بعد ان ثبّتت الإحداث التي شهدتها تلك المنطقة من المدينة الاسم الفتحاوي بحيث صار من الصعب تغييره كله.

أسماء أحياء كثيرة في غزة توقع زائرها بحيرة مردها سهولة إطلاقها، خصوصاً إذا كان هذا الزائر يعتقد أن الأسماء أكثر تعقيداً والتباساً مما هي حال أسماء شوارع غزة، فتكمن غرابة تسمية حي الزيتون في انه كان منطقة فيها بساتين زيتون فأطلق الاسم على نحو سريع عندما تحولت «البيارات الزراعية» الى حي سكني. أما حي التفاح المجاور لحي الزيتون، فلم يسمّ باسمه لأنه كان يضم بساتين تفاح من الصعب استنباتها في المدن الساحلية، لكنه ربما سمي بهذا الاسم لأن الزيتون في مقابل التفاح، تماماً كما هو حي الزيتون في مقابل حي التفاح.

وتنسحب معادلة «الأسماء السهلة» على مختلف أحياء المدينة، فحي الرمال الجنوبي اكتسب اسمه لأن ارضه رملية وهو في جنوب حي الرمال الشمالي الذي ارضه رملية أيضاً. والأرجح ان حي الشيخ رضوان سمي بهذا الاسم لأن شيخاً اسمه رضوان سكنه في غابر أيام غزة.

يقيم وصفي الحسيني في حي الشجاعية غرب غزة. ووصفي صاحب «بيارة» كبيرة جنوب حي الزيتون بالقرب من مستعمرة نتساريم، تلك المنطقة التي شهدت ذروة الهجمات الإسرائيلية في الحرب الأخيرة على غزة، وأدت تلك الهجمات الى تدمير منشآت المزرعة وآلاف الأشجار في «بيارة» آل الحسيني. وإقامة وصفي ابن العائلة الغزاوية في حي الشجاعية يؤشر الى ان تلك العائلات خارج قسمة المدينة بين البيئتين الفتحاوية والحمساوية، ويؤشر الى تضعضع تلك القسمة إذا ما قيست من زاويا غير سياسية.

وصفي المزارع وصاحب «البيارة» يوحي بأن في غزة ما هو سابق على هذا الانقسام، لكن هذا الشيء ضعيف الحضور في المدينة هذه الأيام. فالانقسام أقوى في المشهد الغزاوي، وهو لا يفسح إلا نادراً الى ما هو خارجه. وقبل ان يكون الانقسام كان المشهد أيضاً محتكراً من قبل آخرين ولم تكن هذه العائلات في أحسن أحوالها، إذ ان الرئيس السابق للأمن الوقائي الفلسطيني محمد الدحلان وهو من خارجها، كان شغل لفترة طويلة المشهد الغزاوي. من دون أن تعني تلك الصور أن ثمة انقساماً حاداً في القطاع بين السكان واللاجئين، موازياً للانقسام السياسي أو مؤشراً إليه، لكن التفاوت هو في مدى قرب أو بعد المعبرين عن هذا الانقسام من هذه الشرائح أو تلك.

مرارة وصفي من جراء تدمير «بيارته» هي إحدى قنوات اتصاله بمرارات اللاجئين من سكان المدينة جراء ما أصابهم في الحرب الأخيرة. فالحسيني يبدأ حديثه «خجلاً» من عرض ما أصابه في مقابل ما أصاب آخرين من سكان القطاع ممن قتلت عائلاتهم أو أصيبت أو شردت. إذ أن غزة دائماً ما تعيد تبديد تفاوتاتها مستعينة بآلة حرب عملاقة مقيمة في جوارها، أو بحروب أهلية لطالما تولت مهاماً من هذا النوع.

الى جوار «بيارة» وصفي الحسيني تقع بيارة آل العلمي، وليس بعيداً عن البيارتين تقع الحدود الإسرائيلية مع القطاع، والى هناك ينظر وصفي مشيراً بيده الى معبر خرجت منه الدبابات متقدمة نحو «بيارته» المزروعة زيتوناً، ويقول: «كان أهلنا يزرعون هذه الأرض بالحمضيات، لكن بساتين الحمضيات تحتاج عناية تفوق إمكانات المزارع الغزاوي هذه الأيام. الزيتون اقل كلفة من الحمضيات. وينهي حديثه مشيراً الى شجرات زيتون عتيقة جرفتها الدبابة الإسرائيلية خلال تقدمها الى حي الزيتون. أكمل وصفي فكرته عن الفارق بين الحمضيات والزيتون غير مكترث الى ان ثمة من ألغى هذا الفارق عبر إجهازه على تلك الشجرات.

وقفة مع المؤرخ التركي محمد توتنجي وكتابه(فلسطين التركية).. وميض ثان من اسهامات الاتراك في نقوش فلسطين

تعليق: خضر موسى الشهابي

■ للاتراك في الشرق الاوسط تاريخ طويل من الحكم امتد منذ الفترة السلجوقية وحتى نهاية الامبراطورية العثمانية وترك اشكالا متعددة من آثار السلف الحاكم، وما بقي من آثار تلك العصور التركية متمثل بالنقوش والكتابات الحجرية التي شكلت احد مظاهر الهيمنة وشواهدها المرئية، وهذا ما عودنا عليه المؤرخ التركي محمد توتنجي المشار اليه.

يعد هذا الكتاب كما وصفه مؤلفه المكمل لكتابه السابق القدس التركية (١٥١٦ - ١٩١٧) الذي يدور حول نقوش العثمانيين في القدس صدر سنة ٢٠٠٦ غطى فيه كافة نقوش الحكم العثماني التركي على أرض فلسطين وقام بتوثيق ١٢٢ نقشا من داخل القدس وخارجها، ومع صدور كتابه الثاني فلسطين التركية يكون المؤلف قد استكمل توثيق النقوش الحجرية منذ أول حكم سلجوقي تركي في فلسطين سنة ١٠٦٩ وإلى نهاية الامبراطورية العثمانية سنة ١٩١٧، مع بعض نقوش أخرى أموية ومملوكية وأيوبية شملهم الاستطلاع الميداني.

شمل هذا الكتاب تحقيق ١٣٤ نقشا من خارج القدس ٩ نقوش منها من داخل السور، واشار إلى ان الاغلبية الساحقة لنقوش هذا الكتاب في مدينة الخليل وفي الحرم الابراهيمي، وهناك ١٢ نقشا في صفد ٨ نقوش في الرملة و٨ اخرى في يافا و٧ في النبي موسى، ويأمل المؤرخ وهو فارس هذا الميدان أن يكون قد استكمل الدراسة الاستقصائية من تسجيل نقوش فترة الحكم التركي لفلسطين.

واشار في كتابه الى نقش محفور بمهارة على شمعدان من النحاس عليه اسم حاكم أرتقي يرجع للقرن السابع هجري موجود في المتحف الاسلامي من الحرم الشريف، ونشر نقش بناء الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف ونشر نقشا للملك المعظم عيسى يعود لوقت مبكر من العصر الايوبي، وعرض نقوشا من الزاوية الاسعدية في جبل الزيتون ونقش مسجد سلوان المفقود، وخلال الزيارة التي قام بها المؤلف للقدس في كانون اول ٢٠٠٧ وجد في حديقة القلعة بقايا اجزاء مكسورة لنقوش تم توثيقها والحاقها بالاصل المنشور في كتابه السابق، وأكد على ضرورة التعامل مع النقوش اثناء استخراجها وخلال اعمال الحفريات الأثرية برفق وحسية لعدم تحطمها الى أجزاء موضحا بأنه لا ينبغي أن يواجه هذا الارث مثل هذا المصير.

واعتبر المؤرخ توتنجي كتابه بأنه جهد جماعي شاركه فيه اصدقاؤه وبعض الجامعيين معربا عن استمتاعه بالعمل معهم خلال مساعدتهم له في بحثه في القدس وضواحيها، واثنى بالشكر على الاستاذ خضر سلامه الذي شاركه بخبرته المثيرة في اكتشاف أول نقش سلجوقي في القدس ولكن لم ينشر هذا الكتاب لعدم الحصول على إذن نشره بعد.

نقش سلجوقي في القدس

اشار المؤلف الى نقش اكتشف حديثا في القدس ساهم في معرفة تفاصيل لم تكن بالامس مقروءة، وهو الوحيد الذي يعود للفترة السلجوقية في القدس، وقد ذكر المؤلف قائلا: ابلغني القيم على المتحف الإسلامي في القدس الاستاذ خضر سلامه في كانون الأول ٢٠٠٧ انه قد اكتشف نقشا في المسجد الاقصى يتضمن اسم الحاكم السلجوقي (تتش)، وتم ذلك أثناء أعمال الترميم التي اجريت في محراب زكريا بعد إنزال الالواح الخشبية المنقوشة واحجار من المرمر عن حائط المحراب وسيتم نشر هذا النقش في المستقبل القريب، منقوش بالخط الكوفي الفاطمي في أربعة سطور ويعود تاريخه الى سنة ٤٧٦ هـ.

وتقدم بالشكر لنخبة مثقفة من القدس مصرحا لولا مساعدتهم له لما استطاع تفقد وزيارة النقوش واتخاذ الصور المعروضة في هذا الكتاب، وقد خص بالشكر اصدقاءه من فلسطين وهم الشيخ عبد العزيز البخاري والاستاذ فهمي الانصاري والدكتور يوسف النتشه وحنا ترجمان ومحمود يزبك وجاد ناسي وآخرين من تركيا.

صدر الكتاب باللغة الانجليزية وأهداه للسلطان بيبرس ملك ملوك العرب، ويقع في ٣٢٠ صفحة وموثق بالصور والمراجع.

السلطان بيبرس

السلطان بيبرس هو رابع سلطان مملوكي، ولد سنة ٦٢٠هـ/١٢٣٣م وله العديد من الأعمال في أماكن مختلفة من فلسطين في القدس وصفد والرملة ويافا وغيرها، ويشير المؤلف الى وجود ١٦ نقشا وكتابة للسلطان بيبرس في فلسطين، وأهم نقش للسلطان المملوكي بيبرس راسخ على الحائط الغربي للنبي موسى داخل المجمع على جدار ضريح، وله شكل نصف دائرة خطوطه ليست على قدم المساواة، وحظي هذا النقش بدراسة مستفيضة من قبل لوس انجليس لماير (ماير ١٩٣٢) وروفين اميتاي.

نقوش السلطان بيبرس في فلسطين

لأن هذا الكتاب مكرس لذكرى السلطان بيبرس فمن المناسب أن يشمل كافة نقوش فلسطين في تلك الفترة، وقد رتب المؤلف هذه المجموعة في قائمة بأسماء النقوش وفصول الاماكن حسب تسلسل زمني، وللسلطان بيبرس ١٦ نقشا في فلسطين ١٠ منها في مواقعهم الأصلية، ٢ في مقام النبي موسى، ٣ منها دمرت تماما في صفد، ومصير نقش نابلس مجهول.

نقوش الزاوية الاسعدية

الزاوية الاسعدية تقع على الجزء الشرقي من جبل الزيتون أوقفها الشيخ ابو اسعد سعيد افندي المفتي الأعلى في القسطنطينية (اسطنبول)، وبنيت في سنة١٠٢٣/١٦١٤-١٦١٥ كما دل نقش المدخل.

وتوجد نقوش على جدران الساحة تشير إلى أنها بنيت على فترات متعاقبة، اثنان من ألواح الكتابة ذكرا في وقت سابق، الاول مؤرخ ١١٤٣/١٧٣٠-١٧٣١ يشير إلى سرداب يؤدي إلى قبر الشيخ شمس الدين محمد العلمي وبعض أفراد عائلته، والثاني مؤرخ (١٣٢٣/١٩٠٥-١٩٠٦)، ويتألف المبنى من العديد من الوحدات، وباحة مستطيلة، المسجد مستطيل (١٠ × ٦٫٥ م)، وله العديد من النوافذ، وفيه محراب مقعر يكمن في الحائط الجنوبي. وفقا لما كتبه الدكتور يوسف النتشة سنة ٢٠٠٤.. ص ١٣٦-١٣٨

مقام النبي موسى

يقع على بعد ٧ كلم جنوب أريحا و٢٤ كيلومترا شرق القدس، على بعد حوالى ٢ كم وراء اللافتة التي تشير إلى مستوى سطح البحر ،وفي سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م بنيت قبة المقام والمسجد من قبل السلطان بيبرس بعد عودته من الحج.

واعتبر مقام النبي موسى مقصدا للحجاج، وتم بناء الخان الكبير من قبل العثمانيين لاستيعاب عدد كبير من الحجاج الذين شملت رحلتهم الأماكن المقدسة في القدس والخليل ومقام النبي موسى إذ يعتبر المكان المقدس للمسلمين لأنه يضم قبر النبي موسى.

ويعد المقام أحد أكبر المجمعات المعمارية الدينية في فلسطين، وتتألف من ثلاثة مستويات، ويشمل المجمع على أكثر من ١٠٠ غرفة واسطبلات للخيول ومجموعة من القاعات ومئذنة، واعتبرت تكية لسكن وضيافة الحجاج، ووهب المقام الكثير من الأوقاف واحتل موقعا هاما في تاريخ الشعب الفلسطيني من وجهة نظر سياسية ودينية ومعمارية واجتماعية وفولكلورية.

النبي موسى كان دائما محور الاحتفالات والأعياد واحد أشهر المواسم الدينية، بدأ هذا الاحتفال في الفترة الايوبية، واستمر في الاتساع والنمو مع توافد حشود المشاركين من أنحاء مختلفة من فلسطين، وخلال موكب المسيرة ترفع الأعلام واللافتات التي كانت محددة في كل مدينة.

موسم النبي موسى

موسم النبي موسى مناسبة دينية، وكان حدثا اجتماعيا هاما جدا لأنه جمع بين الفلسطينيين من جميع أنحاء البلاد، كانوا يجتمعون لتناقش شؤونهم، واقامة روابط مع بعضهم البعض، والتخطيط لأنشطة مشتركة، وكانت تصل الوفود من مدن بعيدة مثل حيفا ونابلس ويافا والخليل والقدس وغيرها من المدن والقرى الفلسطينية، وقد تجلى المغزى السياسي لهذا التجمع الضخم خلال ١٩٢٠ و ١٩٣٠ حينما تجمع عشرات الآلاف من الفلسطينيين في موسم النبي موسى احتجاجا على الهجرة والاستيطان الصهيوني في فلسطين، وضد سلطات الانتداب البريطاني التي ساندته، وفي سنة ١٩٣٠ دعا الجيش البريطاني الى قمع المظاهرات في الموقع، وفي عام ١٩٣٧ منعت بريطانيا الاحتفالات في المقام تماما، فاصبح عيد النبي موسى رمزا للمقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال والقوات البريطانية وكان من المحرمات، واستؤنف الموسم فقط في عام ١٩٨٧ عندما حضر ٥٠٫٠٠٠ فلسطيني لمسيرة الموسم التي نظمتها دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس بعد انقطاع دام ٥٠ عاما، ولكن الإجراءات الإسرائيلية أوقفت الشعب الفلسطيني عن مسيرة الموسم خلال فترة الانتفاضة (١٩٨٧-١٩٩٥)، وقامت لجنة تعزيز السياحة في محافظة أريحا وبالتعاون مع الجانب الفلسطيني - وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بمحاولة إحياء هذا الموسم ولكن دون جدوى، النبي موسى لا يزال حتى اليوم في البرية من صحراء هادئة ورائعة جدا في انتظار أيام أفضل.

الحرم الإبراهيمي الشريف

يقع المسجد الإبراهيمي بالقرب من الركن الجنوبي الغربي من المدينة القديمة في الخليل، وتاريخ المبنى يعود للقرن الأول قبل الميلاد، وقد وصف المؤلف الحرم الإبراهيمي الشريف بأنه مرتبط بأبي الأنبياء (سيدنا إبراهيم)، ويعتبر رابع أهم موقع ديني في الإسلام بعد مكة والمدينة المنورة والقدس، وثاني أقدس مكان بعد المسجد الأقصى في فلسطين.

يتألف الحرم الإبراهيمي من مبنى كبير مستطيل المخطط يبلغ حوالي ٣٤x٦٠ م محاط بسور عظيم حملت جداره كتلا حجرية كبيرة، وفي الحرم مئذنتان يرجع تاريخهما الى فترة العصر المملوكي، وكهف يعرف باسم الغار، بالإضافة إلى مجموعة من القبور المخصصة للأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب وزوجاتهم.

نقوش مسجد ابراهيم الخليل

هناك عدد من الحكام والسلاطين والأمراء أشرفوا على البناء والتجديدات والتعديلات في الحرم الإبراهيمي الشريف، ومن بين هؤلاء: هيرودس (٣٧-٤ قبل الميلاد)وبدر الدين جمالي أمير الجيوش الفاطمية وملوك الصليبيين من القدس، وصلاح الدين الايوبي ١١٦٩ بعد استعادة الهوية الاسلامية الى الموقع قام بتجديده بالكامل، ويقول المؤلف: عندما استعاد صلاح الدين الايوبي مدينة الخليل في ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، اعاد المسجد بعد تحويله لكنيسة واضاف إليه منبرا خشبيا يقف على يمين المحراب، ويعتبر هذا المنبر من أقدم المنابر الخشبية الإسلامية التي لا تزال قيد الاستخدام، واعتبره المؤلف تحفة فنية في حالة جيدة.

يوجد في المسجد الابراهيمي ثلاثة نقوش سلطانية (الملكية العثمانية) الأول هو نقش السلطان سليمان، والثاني باسم السلطان التركي عبد العزيز في عام ١٢٩٣/١٨٧٣، والثالث يعود للسلطان عبد الحميد الثاني، وقد اشار الى نقش باللغة اليونانية، وذكر سبعة مصابيح وهبت من قبل الوزير محمد ابراهيم موزعين على القبور والكهف وذكر المؤلف وجود شمعدانات من النحاس واعلام الانبياء في المسجد الابراهيمي وصلت لهذا المسجد عن طريق هبات من السلاطين، مشيرا الى مقتنيات وبقايا نقوش موجودة في متحف مدينة الخليل.

لافتات احتفالية

استخدمت الاعلام والرايات على نطاق واسع في المواكب الدينية الرسمية التي جرت في العديد من المواقع الدينية في فلسطين، هذه المواكب شكلت جزءا هاما من الثقافة المحلية وتاريخ المنطقة، لافتات ورايات ذات أهمية دينية واجتماعية وفي ظل تنامي الوعي الشعبي رفع الراية تقليد يقتصر على بعض المواكب الدينية والاجتماعية وقاصر على السكان المحليين باعتباره نوعا من انواع المكانة الاجتماعية.

ومنها لافتات بعث بها السلطان سليمان والسلطان عبد الحميد الثاني للمسجد الابراهيمي ولمقام النبي موسى التي استخدمت في المهرجانات والمواكب في فلسطين تحمل أسماء الأنبياء، ودور العبادة، والمدن الهامة في العالم الاسلامي.

أعلام من المسجد الابراهيمي

تشمل هذه الأعلام آيات قرآنية وأسماء الله الحسنى وعبارات دينية، وكانت عادة أن يرسل علم من ولاية العاصمة للتأكيد على أهمية المكان، ويحتفظ الحرم الابراهيمي بكمية كبيرة (١١ علما) التي بعث بها رجال الدولة العثمانية، ويشير المؤلف هنا الى امكانية استعراض كامل للأعلام العثمانية الموجودة في الاقليم.

واشار الى أعلام في غرفة النبي يعقوب بالقرب من قبره، والـ ١١ لواء للسلطان عبد الحميد في غرفة قبر سيدنا ابراهيم، واشار الى علم من الحرير والجلود المطرزة على خلفية من الحرير الجزء العلوي باللون الأحمر، الأخضر هو الجزء الأساسي والجزء السفلي أصفر من الحرير، والنصوص عبارة عن قطع من الجلود ومخيطة على جلود، وكما يبدو واضحا للمؤلف وحسب صور للأعلام تعود لعام ١٨٨٩ تظهر الاعلام بحالة متردية للغاية.

نقوش الرملة

تأسست الرملة في سنة ٩٧هـ/٧١٦م في عهد الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك، وتقع في منتصف الطريق بين القدس وساحل مدينة غزة وعلى مفترق طرق تاريخي يربط بين القاهرة ودمشق وبين القدس ويافا. وفي سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م أمر الخليفة العباسي هارون الرشيد ببناء حوض كبير، وفي الرملة شيد مسجدين المسجد الكبير والمسجد الابيض الذي بناه الأمويون بما له من خصائص وساحة البرج الشهير ولسوء الحظ أهم نقش مملوكي في إعادة بناء المسجد الأبيض من قبل بيبرس في ١٢٦٦/٦٧ قد ضاع.

والرملة أيضا ضحية للعديد من الزلازل والحروب، ما بقي بعد التدمير لا زال يثير الإعجاب وشاهدا صامتا على احداث الماضي، وهناك نقوش تضررت بشدة في الرملة.

نقوش يافا

يافا من أكثر المدن حيوية في فلسطين من الناحية السياحية، تقع في نهاية الطريق المؤدية الى القدس عن طريق الرملة واللطرون، وعلى الرغم من الظروف الصعبة الناجمة عن الحرب العالمية الاولى بنى حسن بك مسجده وسبيلا فاخرا يحمل اسم قائده جمال باشا وكان في شارع عرف وقتئذ باسم شارع القدس.

ومن النقوش التي لا تزال على مدخل مسجد الطالبية علما بأنه مغلق امام المصلين والزوار، ومسجد المحمدية من اعمال السلطات العثمانية يحمل نقشه اسم السلطان التركي عبد المجيد (١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م).

نقوش صفد

في تموز ٦٦٥هـ استعاد السلطان بيبرس قلعة صفد من الصليبيين، وبنى في سنة ٦٧٤هـ المسجد الاحمر في صفد، الا ان نقوش صفد تضررت كثيرا ويتوقع المؤلف من المسؤولين معاملة أفضل للتراث الثقافي، وخاصة عندما يحمل رمزا دينيا وعمره أكثر من ٧٤٠ سنة.

نقوش اللد

الجامع الكبير في اللد يسمى أيضا جامع الخضر، وتداخل بناؤه في الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية (مار جرجس)، بني المسجد على أساس بقايا كنيسة بيزنطية والتي أدرجت على بنية المسجد، وفي وقت لاحق سنة ١٨٧٠ بنيت كنيسة سان جورج المجاورة للمسجد، ويقع النقش على السطح الخارجي لباب المدخل في حالة جيدة.

لم ينظر المؤلف لحال النقوش بعين الرضا فقد اشار وفي مواقع عدة من كتابه الى الأوضاع المتردية التي وصلت اليها بعض النقوش، ويعود السبب في تردي هذه الحالات للحروب والكوارث التي حدثت في فلسطين ولربما تضررت خلال القتال في عام ١٩٤٨، وهناك نقوش وكتابات حجرية لم تعد في المكان الذي ينبغي أن تكون فيه، الامر الذي حال دون تحديد مكانها، ونصوص منقوشة أصبحت في عداد المفقودة وكان مصيرها مجهولا، وأخرى أجزاؤها مفقودة و متآكلة الأمر الذي حال دون التأكد من ألقاب و نعوت السلطان بيبرس التي لا حصر لها في هذا الحيز المحدود، داعيا الى المحافظة والاهتمام بهذا الإرث الحضاري.

النقوش الحجرية هي الاعمال الموثقة من قبل السلطات لإثبات الملكية وتعتبر شواهد مرئية إذ تثبتت على مداخل المساجد والمباني الحكومية في اماكن بارزة لتعطي شهادة لهذة الاعمال، ويكمن دور هذا الكتاب في توثيق النقوش التركية في منطقة فلسطين، وطالما بادر الاتراك في اسهاماتهم نحو العرب رغم غياب الدولة العثمانية، ويعتبر كتاب مؤلفنا كسابقه أحد هذه الاسهامات التركية المشكورة لما يقدم من خدمة جليلة لطلبة التاريخ والآثار في بلادنا.

الطريق المتعرجة للعلاقة بين الأردن و«إخوانه» تصطدم باستحقاق الحرب على غزة

عمان - محمد أبو رمان -تتجه بوصلة العلاقة بين المؤسسة الرسمية الأردنية وجماعة «الإخوان المسلمين» إلى الضبابية. وقد تكون الجماعة فوجئت قبل غيرها بالانفتاح المفاجئ عليها، من قبل مدير الاستخبارات العامة السابق، محمد الذهبي، بعد مرحلة مليئة بالأزمات، طغت على المشهد السياسي المحلي في السنوات الأخيرة!

انفتاح الدولة الجزئي والموقت على «الإخوان»، جاء في سياق ما سمي بمرحلة «المراجعات» الرسمية، بعد فشل اجتماع أنابوليس للسلام. فالأردن كان من أكثر الدول شعوراً بالخيبة من إدارة الرئيس جورج بوش، ومن عدم صدقية وعودها بإقامة الدولة الفلسطينية من ناحية، والخشية من أن عدم قيام هذه الدولة سيؤول إلى تحمل الأردن أعباء القضية الأمنية والسياسية، في ما سمي بالخيار الأردني.

الهدف المعلن من الانفتاح الرسمي الأردني على «حماس» تمثل في اختبار مدى صلابة موقف الحركة من مشروع «الخيار الأردني» وضم الضفة إلى الأردن، وهو الهاجس الأكبر الذي يسكن صانع القرار الأردني خلال المرحلة الحالية.

هذا التحول نحو «حماس» أملته شكوك كانت تساور مراكز تأثير وقرار داخل الدولة تجاه النخبة السياسية الحاكمة في سلطة رام الله، التي - وفقاً لهذه الدوائر - على استعداد لتقديم تنازلات ومواقف مرضية إسرائيلياً وأميركياً، ولو على حساب الأردن وفلسطين.

وتوازى الانفتاح على «حماس» مع العودة إلى طاولة الحوار مع «الإخوان» في الأردن، في ربط عضوي لافت بين المسارين، بالاعتماد على حقيقة النفوذ الواسع الذي تمتلكه «حماس» داخل إخوان الأردن. وأحدث الانفتاح انفراجات على المستوى الأمني والإعلامي.

ويرى سياسيون ومراقبون أنّ مدير الاستخبارات العامة السابق، محمد الذهبي، ذهب بعيداً في تصور صيغة العلاقة مع «حماس» و«الإخوان» في غمرة تفكيره ببناء «جدران» ضد هاجس «الخيار الأردني»، وقد دفع ذلك إلى تراجع العلاقة مع حركة «فتح» وبروز تساؤلات أخرى حول علاقة الأردن بمعسكر الاعتدال العربي، وهو ما برزت علاماته في بداية العدوان على غزة، وجعل منه البعض عاملاً من عوامل تفسير رحيل مدير الاستخبارات العامة بعد ساعات على بدء العدوان.

نهاية «لحظة المراجعات» وضبابية المرحلة

العدوان على غزة أحيا فكرة المحاور الإقليمية وردّ لها الاعتبار. ويرى مراقبون أنّ ثمة تفاوتاً في موقف الأردن بين المرحلة الأولى من العدوان (حين تبدت مسافة فاصلة بينه وبين معسكر الاعتدال) وبين المرحلة التالية التي سعى الأردن خلالها إلى ردم هذه الهوة، والتأكيد أنه لا يقف في منتصف الطريق.

في الوقت نفسه فإنّ هذا العدوان أنهى ضمنياً مرحلة المراجعات في السياسة الخارجية الأردنية، وإن كان قد ساعد الأردن على تحسين شروط علاقته بسورية وقطر والحدّ من الأزمة معهما، وتجاوز كذلك مربع الأزمات مع كل من «حماس» و«الإخوان» المسلمين في الداخل.

في المرحلة المقبلة، يبدو المشهد ضبابياً في علاقة الدولة بكل من الطرفين. فبينما تشير تسريبات رسمية إلى تجميد قنوات التواصل مع «حماس» في المرحلة الحالية، والتي اتخذت طابعاً أمنياً خلال الشهور الماضية، عبر دائرة الاستخبارات العامة، فإنّ سياسيين لا يمانعون بتجدد الحوار معها وفتح الأبواب عليها، لكن على قاعدة الحوار السياسي الاستراتيجي المعلن وليس الحوار الأمني المحدود.

ويرى سياسي أردني مخضرم أنّ الفجوة بين مشروع حماس وبين التصور الاستراتيجي الأردني لا تزال عميقة، ولا حاجة للأردن إلى فتح قنوات مع حماس ما دامت تصر على الولاء للمعسكر الإيراني، فذلك يصطدم مع المصالح الأمنية والحيوية الأردنية بصورة مباشرة».

في المقابل، فإنّ «تجميد الاتصالات» و«مراجعة مرحلة المراجعات» لا يعنيان العودة إلى «مربع الأزمة المباشرة»، بقدر ما يخفف ذلك من تسارع العلاقة بين الطرفين وربطها بالمتغيرات الإقليمية، خصوصاً مع العودة المتوقعة لحكومة الليكود واستئناف الإدارة الأميركية الجديدة لمشروع التسوية السلمية.

من جهته يرى النائب، ممدوح العبادي، أنّ العلاقة بين الدولة وكل من «الإخوان» و«حماس» ستشهد «تراجعاً» ملحوظاً، وقد بدت علاماته من خلال النكوص عن عدد من الخطوات السابقة. ويرى العبادي أنّ السبب يعود إلى استشعار تيار داخل الدولة خطورة الامتداد الإقليمي للإخوان وخطأ ترك المساحات والفراغات للحركة لتقوم بملئها والإفادة منها على حساب الدولة.

المفارقة اللافتة تبدو في أن مؤسسة القرار قامت بقفزتين خلال الشهور القليلة الأخيرة فقط، الأولى إلى الأمام بالانفتاح على «الإخوان» و «حماس»، بل والتفكير باستعادة مشروع الإصلاح السياسي الداخلي والاستعانة بالإخوان لتصليب الجبهة الداخلية، ثم القفزة المعاكسة إلى الوراء، والتخوف من مشروع هؤلاء السياسي وطموحهم وعلاقتهم بحركة «حماس».

وفي هذا السياق، تشير تسريبات وتحليلات إلى أنّ التوجه الرسمي الحالي ينحو إلى الفصل في ملف العلاقة بين كل من «حماس» و«الإخوان»، على خلاف مرحلة «الانفتاح السابقة»، والتعامل مع كل منهما في سياق مختلف.

وعلى رغم وجاهة اعتبار «حماس» حركة وطنية فلسطينية تعمل في الأراضي المحتلة، وتمثل لاعباً فلسطينياً، بينما جماعة «الإخوان» هي حركة أردنية، لها مشروعية قانونية، وتخضع لقواعد اللعبة السياسية. إلاّ أنّ ممدوح العبادي يشكك في واقعية الطرح، خصوصاً مع وجود أسئلة حول نفوذ «حماس» وتأثيرها على «إخوان» الأردن.

مرة أخرى، يلامس العبادي عصباً حساساً يؤثر في تحديد ورسم خطوط علاقة الدولة بجماعة «الإخوان»، يتمثل أولاً بالعلاقة بينها وبين حركة «حماس»، وهو ما يجعل أي توتر مع الأخيرة سبباً مباشراً للتوتر مع الجماعة، ويخلق حالة من التداخل بين المعادلة الإقليمية والداخلية، والثاني أنّ «الإخوان» باتوا يمثلون خلال السنوات الأخيرة جزءاً من الشارع الأردني (من أصول فلسطينية)، خصوصاً الطبقة الوسطى فيه وهو ما يزيد من تعقيد العلاقة بين الدولة والجماعة، ويحفّز التيار اليميني- الأمني داخل المؤسسات الرسمية والمقرب منها ليستمر في التحذير من الجماعة ومن إفساح المجال كثيراً لها.

ما هو مؤكد أنّ الانفراج الموعود في العلاقة تراجع خلال المرحلة الحالية، في ما يبقى الاختبار القريب متمثلاً في مدى تقبل إصدار صحيفة «السبيل» التي يصدرها «الإخوان» بصورتها اليومية والتي أعطيت ترخيصاً في ظل الانفراج بعد ان كانت أسبوعية، وإلى أي مدى سيطول الصبر الحكومي في حال سمح للصحيفة بالصدور، علماً أنّ محددات الصحيفة اليومية في الأردن وخطوطها الحمر تختلف جذرياً عن الصحيفة الأسبوعية؟

في المشهد السياسي والإعلامي عادت المناظرة بين أنصار الحوار مع الحركة الإسلامية والبحث عن قواعد جديدة للعبة السياسية والتفاهم مع الحركة على عدم خرقها وبين التيار الذي يتخوف من نفوذها ومدى قدرة الدولة لاحقاً على التحكم في المعادلة الداخلية.

وفي المحصلة، تبدو العلاقة بين الدولة و«الإخوان» أمام مرحلة جديدة ذات طابع ضبابي. فمنذ الخمسينات إلى التسعينات سادت علاقة من الحوار والتعاون والاحتواء المزدوج، ثم بدأت ظلال التوتر والتربص تطغى على العلاقة، وصولاً إلى مرحلة الأزمة المتفجرة بعد فوز «حماس» بالانتخابات التشريعية الفلسطينية ٢٠٠٦، ثم الصدام في الانتخابات البلدية والنيابية.

هذا النمط الجديد من العلاقة وسمته الرئيسة عدم الاستقرار والتذبذب يضع جماعة «الإخوان» أمام استحقاق القراءة الدقيقة للمرحلة وشروطها واشتقاق طرق براغماتية للتعامل معها.

هذا النمط الجديد من العلاقة وسمته الرئيسة عدم الاستقرار والتذبذب يضع جماعة ''الإخوان'' أمام استحقاق القراءة الدقيقة للمرحلة وشروطها واشتقاق طرق براغماتية للتعامل معها.